

الباب الأول

في منشأ الروس

الساكنون الأول في تلك الأراضي الواسعة التي تسكنها الروس الآن كانوا «سكيفي وصرماطي» يعني الصقلب، وكانت تلك الأراضي غابات ملتفة، وغيطان متسعة تسمى الصحارى، لكن هذا كان من الزمان القديم، وكان هؤلاء الناس مساكين لأنهم لا يعرفون الله، ويعبدون المخلوقات: الشمس والقمر والأصنام، يعني ٥٣/ الصور المصنوعة، ولهذا يسمون الوثنيين، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ولا يبنون المدن الظريفة، ولا يخططون مثل هذه البدل التي نلبسها، ويلبسون جلد الوحوش. وفي الصيف يبنون أخصاصاً بدل البيوت، أو يسترون في الغابات، وفي الشتاء ينحتون في الأرض مسكناً مشابهاً لما يفعله الآن القلموق وسكان سيبير ويسمونه يورطة - أي دويرة المتجعين -، وفرقة منهم تتقوت بالصيد والأسماك والخبز بصيد، وتحث الأرض، وتعيش دائماً في محل واحد، وتسمى القاطنين، والأخرى يستعملون للأكل لحم مواشيهم السائمة ولبنها، ولا يقيمون بمحل واحد، ولذلك يسمون المتجعين، ومع ذلك فسكيفي وصرماطي يعرفون عمل السلاح، ومن الخشب اللان يحنون القسي ويربطونها بالعروق القوية، والحراب الحادة، والسهام، ويعملون من العظام القوية أو الشطف والسيوف من الحديد، والمجن من الجلود الغليظة، ولمحبتهم الحروب كانوا شجعاناً، لكن قاسين غالباً يتحاربون مع جيرانهم ويقتلونهم ويحملونهم قرباناً لأصنامهم.

وقال الروم وأهل رومة في شأنهم: كأنهم لهم فوق الجسم الإنساني وتحت الجسم الخيلي، هذا بسبب أنهم دائماً يحاربون على الخيل كأنه طار لهم في الهواء الزغب الأبيض، يعني الثلج، وكأنهم في الشتاء وينقلبون ذئاباً وضباباً بسبب أنهم يلبسون جلد الذئاب والضباب، وحين استأصلت الحروب سكي في وصرماتي، ظهر محلهم الصقلب الذين تشعبت منهم الروس، يظنون أنهم جاؤوا من آسيا، ومع أنهم أيضاً لا يعرفون الله، ولا يعبدون الأصنام، ولم يكونوا قاسين هكذا، وما كانوا يقتلون أسراهم بل يتخذونهم عبيداً، وبعد عدة سنين ٥٤/ يعتقونهم. وكانوا أيضاً شجعاناً يغيرون دائماً رجالة، وعند الحرب يسألون ربهم الموت أو الظفر، ويهجمون على العدو بصياح مفرح، وبالموسيقى، وكانوا مشغولين بالفلاحة إلا قليلاً، وهي تصلح الناس وتمنعهم من أن يسلموا أنفسهم للبطالة التي هي أم العيوب، وبسبب القوت الغليظ والتعب صار لهم صحة أبدان وقوة وجمال الخلقة، وكانوا مستقيمين طيبي القلوب، ولا يكتمون ما في باطنهم، ولا يحلفون أبداً، بل يقولون: «أنا أستحي إن لم أفِ بالعهد»، ودائماً يوفون بوعودهم، وإذا جاء المسافر في قراهم، كل واحد منهم يلاقه بالترحيب ويكرمه في دويرته ويسخن له ماء الحمام، ويحميه عن تعرض له، ولما رأى اليونان كرم الصقلب أحبوا زيادتهم وحملوا إليهم الذهب والبضائع وقايضوهم على ذلك بالمواشي والجلود والغلة والصوف والعسل والشمع وغير ذلك، ومن هذا نشأت التجارة، وصار الصقلب أغنياء، وهؤلاء البياعون يسمون عندهم الضيوف، ونساء الصقلب كانوا في غاية الطاعة لأزواجهن، وبموتهم يحرقن أنفسهن بطيب القلب منهن، لأنهم في ذلك الوقت ما كانوا يدفنون الموتى، بل يحرقونهم على الخشب، وفي وقت الحرب يحاربون بقرب أزواجهن لا يستهلون الموت، وكانوا يؤدبون أولادهم بالقساوة، ويلزمونهم باحترام الكبار وتوقيرهم بحيث ان الشبان لا يتجاسرون أن يعصوا إن أمرهم ببعض شيء، والشبان قط لا يدخلون في خطاب الرؤساء المتعلق بتدبير المهام، وبلا لوم يفعلون على إرادتهم، ويتميزون بالتواضع

والأدب والإطاعة والاجتهاد، وأكثر الكل محبة الوالدين وتوقيرهما. ٥٥/ وكانوا إلى هذا الحد مؤدبين بحيث انهم إذا تلاقوا مع الكبار دائماً يرفعون برانيطهم بالأدب كما يفعله الآن الفلاحون الطيبون. والصقلب كانوا يحبون الرقص والموسيقى، إن ذهب أحد منهم في الطريق لا يأخذ معه سلاحاً بل يأخذ معه قيثاراً أو صفارة أو زمارة بالقربة أو نحوها من آلات الملاهي كالربابة، وليس فقط في وقت الصلح، بل وفي وقت الحرب عند رؤية الأعداء الكثيرة هم ينسبطون ويغنون الغنوات وينسون الخطر.

أصل ولاية نوفغورد^(١) Novgorod

أصل الصقلب نوفغورد؛ فربح غوستو ميصل روريك أول أمير روسي من سنة ٨٦٢ إلى سنة ٨٧٩.

الصقلب ينقسمون إلى عدة بطون مختلفة الأسماء منهم: صقلب دونا؛ وهم الساكنون على نهر دونا، ولم يكونوا مثل الآخر في محبة الصلح والشفقة والعفة، بل كانوا في الغالب يغيرون على جيرانهم، ويأخذون مواشيهم ويخربون بيوتهم. وفي واحدة من هذه الغارات استأصلوا بالنار والسيف بعض ولايات الروم. وقصر تلك الأرض سأل الاقتصاص من الخان الشمالي، يعني قيصر أواروف الذين جاؤوا في روسيا في القرن السادس من صحراء التاتار في آسيا، لكن بيان الذين حمى نواحي كثيرة من مدة تألب ليعاقب سكان دونا على جفوتهم وغلظتهم، ولما جمع جيوشاً عظيمة ذهب أمامهم وصار ينهب ويحرق الأرض ويهلك الناس، وبدلاً عن حماية الشجعان هم تخلصوا من الغارة واستتروا في الغاب، وكثير منهم ذهب في الشمال عند أجناسهم السعيدة الذين ٥٦/ يعيشون في نواحي سواحل بحر بلطيق، ويحفظهم عفتهم الأولى وشجاعتهم تخلصوا من الأسر أو الرق. والصقلب البلطيقون كانوا أكثر تمدناً من الآخر، وبنوا مدناً منها نوفغورد الموضوعة قرب غدير

(١) انظر، قلفاط: تاريخ بطرس الأكبر، ١٧/١.

أيلمن ونهر فولخوف، ولهذا يسمون النوفغورديين، ومن قديم كان عندهم قانون بتحكيم الأكبر، فكل عائلة تطيع الجد أو الأب أو العم أو الأخ الأكبر الذي يملكهم ويفصل النزاع بينهم، وله التسلط التام عليهم، وفي الأمور العمومية يحكمون الرئيس المسمى الأشنج، وفي العسكر فوجد أوقوفود يعني صاري عسكر، وكان الصقلب النوفغورديون زمناً طويلاً أقوياء وأغنياء، لكن حروبهم مع مجاورهم الذين كدروا عليهم بفتكات عديدة وبلبات عتيدة أضعفتهم في الآخر جداً حتى إنهم دخلوا تحت سلطنة واريغ، قوم شجعان يعيشون على بحر البلطيق في سكاندينا التي هي الآن السويد، وفي مدة بعض أزمنة طردوا واريغ ثانياً خلف البحر، لكن لما رجعوا خالصين منهم وقعوا في ضنك جديد فابتدأوا في النزاع والشقاق والحروب بينهم الناشئة من عدم الطاعة للأكبر والرئيس. وجيرانهم اغتتموا هذه الفرصة وابتدأوا ثانية ينهبون مملكتهم، ويأخذون مواشيهم، ويقودونهم في الأسار. وبالسعادة كان في نوفغورد في ذلك الوقت الأكبر العاقل صاحب الهمة العجوز غوستو ميصل الذي يحبونه كلهم ويوقرونه جداً، ولما رجا أن يخلص قومه من ورطة العذاب والضنك الحقيقي، دعاهم في ميدان عظيم، وحقق لهم إثبات قانون الملك يعني اختيار أمير أو ملك، يحكم وحده المملكة، ويقمع البغاة والخارجين ويحميها من المجاورين الوحشيين ٥٧/، فحينئذ تحزب النوفغورديون أحزاباً منهم، ويس كريفيج، وأرسلوا رسلاً بنصيحة خلف البحر إلى واريغ، يقولون لهم: أرضنا واسعة وكثيرة السكان، ولكن لا ترتيب فيها، تعالوا املكونا واحكمونا، وثلاثة إخوة من أصل واريغ، والروس يسمون روريك وسيناف. وتروفور مشهورون بالأصل والنسب وحسن السيرة، جاؤوا ٨٦٢ بجيشهم العظيم في أرض الصقلب، وروريك ابتداء بحكم نوفغورد وسيناف «بيلي اوزر» يعني البركة البيضاء، في شمال نوفغورد الشرقي مملكة ويس وتروفور أربورسك مدينة كريفيج في الجنوب الشمالي من نوفغورد في مملكة بسكوفسك، فمن ذلك الوقت سميت تلك الجهات الروسية وأهلها سموا «الروس»، والصقلب تمتعوا ثانياً بالراحة والسعادة لأن جيرانهم ما بقوا

يجسرون أن يغيروا عليهم والبغاة والخارجون كانوا مقهورين، فذات يوم رجل يسمى وادم رجل رديء جداً، وكان نقم على روريق عدم إباحة النهب والشقاق، تعصب مع أمثاله من الأوباش ضد أميره، لكن الله عاقبه فقتل في الحرب، وعوقب أصحابه كلهم، وبعد مدة قليلة مات سيناف وترفور وورث ملكها روريق، وصار وحده ملك روسيا الكبيرة، وحكم سنة ٨٦٤ مدة سبع عشرة سنة أحسن ما يكون.

أصل ولاية كييف (١) Kiev

سكولد ودير، الحرب مع الأورام: قد ذكرنا أن روريق لما جاء، جاء معه جيش عظيم، وكان في عددهم سكولد ودير رئيسان من رؤساء العسكر، وهما مولعان بالحرب، فذات يوم لما اجتمعت ٥٨/الأصحاب ذهبوا إلى روريق وسألا منه الذهاب للتفتيش على السعادة في الأراضي الأخرى، وهو خلاهما يذهبان بالفرح بسبب أنهم كانوا كلهم حربيين وأقوياء فذهبا حتى إلى الجنوب ونهبا البلاد التي في الطريق، ولما وصلا إلى نهر دنيبير نهر كبير في داخل روسيا على الجنوب، ويصب في البحر الأسود - رأيا على ساحل النهر مدينة فسألا: لمن هي؟ فأجيبا: بأنها مدينة صقلية بناها ثلاثة أخوة صيادون، وباسم الأكبر سميت كيا سميت كييف Keiv، وكل الأخوة الثلاثة ماتوا من مدة طويلة، والمدينة تحت يد الحربيين المهولين الخزر، تدفع لهم الخراج حالاً، والخزر سكنوا أولاً نواحي بحر كيلان المسمى قديماً بالخزر الموجود بين روسيا والفرس والتاتار المستقلين فحينئذ حكمها سكولد ودير ووعدا أن يحميها من الخزر، لكن بدل ذلك جهزا السفينة وأجلسا فيها عدة كثيرة من جماعتهما ومن عساكر كييف Keiv، وركب الجميع من كييف على نهر دنيبير إلى البحر الأسود، وظهرها عند أسوار القسطنطينية تخت الروم، إذ ذاك وحاصرها، والروم رأوا الروس أول مرة مع الاستهوال، والعسكر لم

(١) قلفاظ: تاريخ بطرس الأكبر، ١٧/١.

يتجاسروا أن يحاربوهم واستهولوا كثرتهم، والسكان ارتعدوا وظهر هلاك القسطنطينية متحتماً، لكن كان هناك أسقف يحب الخير يسمى «فوطي» أخذ صورة العذراء التي تضرعت نحوها الناس عند الضنك، ورفعها مع الطرب على الساحل، وابتدأ يدعو بقلب مخلص، وجثا هو والأعيان والعوام والعسكر على الركب وسألوا من العذراء الحماية، فحينئذ «فوطي» غطس الصورة في البحر إلى أن هدأ القلق، وسكن الضجر وبالبعثة ارتفع غيم ثقيل، وتفرقت عساكر السفينة ٥٩/ وغرقوا ورجع سكولد ودير بعدد قليل من العسكر إلى كييف، وكثير من أهل كييف تركوا عبادة الأصنام واتخذوا دين النصرانية سنة ٨٦٧م، لكن ما زال أكثرهم وثنياً إلى زمان فلاديمير، الذي عمّد الجميع وأدخل النصرانية في روسيا سنة ٩٨٨م، والأسقف فوطي أرسل لهم قُسساً يعلمونهم الدين والقراءة والكتابة بحروف تهجي الصقلب المخترعة من بعض أزمنة في مدة الراهبين كيريك ومينوديا اللذين ترجما الإنجيل بين الصقلب في مورافيا، وإنما لم يختار لهم فلاديمير دين الإسلام مع أنه عرض عليه أيضاً كباقي الأديان لأنه لما سمع أن دين الإسلام يحرم الخمر، قال الروسي: لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصرّ، وصار ذلك مثلاً. فلذلك ترى العوام يشربون كثيراً خصوصاً في الأعياد، وترى السكارى في الطريق وأيضاً المجاورة للأورام قوته اختيار دينهم لسهولة الارتباط بينهم وبينهم، إذ هم معلمو الروس الدين والعلوم، وفيما ذكرناه هنا كفاية لمعرفة أصل روسيا، ومن أراد بقية التاريخ فعليه بترجمتي لتاريخ روسيا الصغير لأوسترالوف.